فيلم آلام المسيح ... وبعد ؟

تدور الحادثة في فلسطين السنة ٣٠، وتتعلّق بمحاولة قتل نجَمَ عنها مقتل شاب في مقتبل العمر. والضحية الشاب من قرية الناصرة الشمالية، يُدعى يسوع، والده نجار بسيط وأمه معروفة بتقواها وخدمتها وبساطة عيشها. بعد نزاع دام اثنتي عشرة ساعة، وعذاب جسدي مؤلم جدًا، توفّي الشاب مصلوبًا، بعد أن نزف دمه، وناء تحت وطأة التفنن بأنواع العذاب.

هذا باختصار خبر موت يسوع الناصري الذي قضى قتلاً، وبفعل قيامته من الموت عاشت قصة صلبه آلاف السنين، واستفاقت اليوم في العالم فظاعة الجريمة التي نُفّذت فيه، من خلال فيلم ميل غبسون الجديد: آلام المسيح.

في الحقيقة، ما زال حدث الحكم على يسوع بالموت وتنفيذ هذا الحكم فيه، يأخذ الحيز الأكبر من الاهتمام بعد مرور السنوات الطوال. فالحادثة المروّعة، ليست عمل مجرم قتل بدافع السرقة، أو الثأر، أو الحقد... بل جريمة سلطة دينية ودنيوية، استهدفت بريئًا، فحكمت عليه بالعذاب والموت دون محاكمة شريفة وعادلة. لقد تحوّل الحكم على يسوع، وطريقة تقبّله لهذا الحكم، إلى محاكمة مفتوحة، تضع البشرية بأكملها في قفص الاتهام. نعم ! إن آلام المسيح هي بحدّ ذاتها محاكمة للبشرية المجرمة، وحكم على عدالتها الزائفة.

من هو يسوع الضحيّة، وكيف يصوّر ميل غبسون الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة من حياته؟

يسوع هو شاب يهودي مغمور، بدأ بالتعليم والتبشير بمجيء ملكوت الله، يوم كانت فلسطين تخضع للحكم الروماني. كان تعليم يسوع مزعجًا لكل الذين جعلوا من السلطة وسيلة لتحقيق مصالحهم الشخصية، فلم يحابي الوجوه أبدًا بل سمّى دائمًا الأشياء بأسمائها. كشف رياء الذين يدّعون القداسة، وهم في باطنهم تجّار وكاذبون؛ وما خاف من إعلان احتيال المسؤولين، الذين جعلوا من مسؤوليتهم وسيلة للإثراء غير المشروع؛ ولا بطّن الحقيقة بكلام مبهم يخلط الأبيض بالأسود ، بل كان واضحًا وضوح النور في تبيانه الحق دون مواربة. رأى فيه الناس شخصًا غير عادي، في غمرة البشرية الساعية وراء المال والسلطة بأي طريقة كانت. لكنه من ناحية ثانية لم ينادي يومًا بالعنف، بل بشّر دائمًا بالمحبة التي لا تعرف حدودًا، وبالمغفرة التي تتخطى كل الحواجز. لم يعطِ لسامعيه عقيدة إلا المحبة والغفران، والأخوة الشاملة. فعمّت شهرته كمعلّم ذو سلطان.

وكان الشعب اليهودي ينتظر منذ قرون ظهور شخص، يسمّونه "مسيح"، يحررهم من الوجود الغريب على أرضهم، ويعيد إليهم كرامتهم القديمة بالسيادة، وبالتحرير من اليأس والإحباط، ويسمح لهم بالعمل على القداسة الذاتية والوطنية. آمن العديدون بأن يسوع هو "المسيح المنتظر". فأحاطت به مجموعة

من اثني عشر تلميذًا، وجذب جموعًا غفيرة تبعته من الجليل واليهودية، ونادت به مسيحها وملكها. بالمقابل، خلق له هذا الوضع الشعبي، العديد من الأعداء في أورشليم العاصمة.

فهم بعض كبار الكهنة، وبعض المسؤولين المتعاونين مع السلطات المحتلة، بأن تعليم يسوع يستهدفهم ويستهدف مصالحهم بشكل مباشر. ففي إيمان الناس بتعاليم يسوع الجديدة القائمة على المحبة، دكٌّ لأسس سلطتهم المستندة على الشريعة وحدها، وخسارة لمركز الحكم المبرم الذي تؤمّنه لهم هذه السلطة، إضافة إلى الوضع الفوضوي الذي يمكن أن يخلقه ذلك.

وعليه، بدأ المجمع اليهودي ، وهو السلطة العليا المؤلّف من كهنة يهود ومن فرّيسيين[1]، بالتخطيط للتخلّص من هذا المزعج نهائيّا. وقد تمّ لهم هذا الأمر بالتعاون مع يهوذا الإسخريوطي، أحد التلاميذ الإثني عشر المقرّبين جدًا من يسوع، فاعتقلوه وأسلموه لسلطات الامبراطورية الرومانية، بعد أن اتهموه زورًا بخيانتها[2]. وبالرغم من إعلانه مرارًا وأمام الجميع بأن المملكة التي يسعى لبنائها هي مملكة روحية سماوية، فقد وجد بيلاطس، الحاكم الروماني، نفسه أمام ثورة شعبية يهيّأها أعضاء المجمع، إن لم يخضع لإرداتهم بالتخلّص من يسوع. تغلّبت المصالح الشخصية المتبادلة، وأخذت السياسة المكان الأول، فأمر بيلاطس جنوده بأخذ يسوع خارج أسوار المدينة، وبجلده، وصلبه، كما كانت تقضي عادة الحكم على المجرمين.

يعود ميل غبسون في فيلمه إلى الأناجيل. لغة الفيلم هي اللاتينية والآرامية وهي لغة ميتة، قريبة من العبرية التي كانت مستعملة في القرن الأول. يبدأ الفيلم في بستان الزيتون (الجسمانية)، فنرى يسوع فريسة للتجربة. يتقدم منه الشيطان بصورة شخص ليس رجلاً ولا امرأة (ثم يظهر فيما بعد على هيئة ثعبان يسحق يسوع رأسه، ثم بشكل أولاد عفاريت، وأخيرًا بشكل مسخ صغير)، يضعه أمام التجربة الأفظع: كيف يمكنه أن يحمل خطيئة العالم كله وهو بريء؟ هذا هائل لا يستطيع إنسان أن يحمله. يتهيّأ لنا للحظة وكأن يسوع يتراجع أمام هذه الفكرة، ثم لا يلبث أن يلتزم نهائيّا في خط إرادة الآب بمشاركته الإنسانية ألمها، وقبوله لكل خطاياها محبة بها وغفرانًا لجهلها: قبل يسوع أن يكون حامل خطايا العالم.

معنى الفيلم الحقيقي يكمن في مواجهة يسوع للشيطان. يظهر المخرج بشكل عميق جوهر رسالة يسوع منذ بداية الفيلم. يتقدم منه الشيطان ليوسوس له فكرة تبعده عن رسالته الأساسية. لقد تجسّد الله، أي أخذ جسدًا بشريًا، ليُظهر للبشر أنهم قادرون على طاعة الله ومواجهة إبليس. تجسّد ليحقق خلقًا جديدًا يغيّر مفهوم الإنسان المقتنع بضعفه وعدم مقدرته على مواجهة تجارب الشرير. لقد غرّر إبليس

---

[1] الفريسيين هم يهود علمانيون كان لهم سلطة معنوية لأنهم كانوا على علاقة وثيقة مع سلطات الاحتلال.

[2] لم يكن يحق لليهود إصدار حكم بالموت في ظل الاحتلال الروماني، بل كان يمكن أن يقدّموا المتهم والتهمة. ولم تكن التهم الدينية تستحق الموت، فكان لا بد لهم من تهمة سياسية تمسّ بسلطة القيصر الروماني.

بالإنسان منذ البدء وأقنعه بعدم طاعة إرادة الله : "تصيران آلهة تعرفان الخير والشر" فأرد الإنسان أن يكون إله نفسه، فتبع كلمة المجرّب وترك كلمة الله. هذه هي قصة الإنسانية التي أعطت لكلمة الشرير المكان الأول بدل لكمة الله، ووجدت لنفسها عذر دائم هو إنسانيتها الضعيفة. تجسّد الله وعاش إنسانيتنا بكل أبعادها ولم يترك لإبليس مجالاً للإنتصار، بل سحق رأسه منذ البدء معلنًا للإنسان بداية عهد جديد تبقى لكلمة الله فيه المكان الأول بالغم من كل التجارب والآلام.

وتبدأ التجربة الحقيقية بعد ذلك. فنرافق يسوع موثقًا يسوقونه إلى بيلاطس البنطي، ثم إلى هيرودس[٣]، ثم من جديد إلى بيلاطس الذي يأمر بجلده. هنا تبدأ أصعب أوقات الفيلم، فنشهد طيلة عشرين دقيقة اجتهاد الجنود الرومان، واستمتاعهم بجلد يسوع بالسوط أولاً، ثم بسوط من سبعة أطراف جلدية ربطت فيها قطع من العظام المسننة. ومع مرور الوقت تحفر أدوات العذاب آثارها في الجسم، فيتحوّل إلى قطعة لحم مهشّمة، ومقطّعة ... لا صورة له ولا منظر، على ما قال أشعيا النبي " لا شكل له فننظر إليه، ولا بهاء ولا جمال فنشتهيه" (أش ٥٣: ٢). ولا ينتهي العنف مع انتهاء الجلد، لأن الوقت الطويل الذي استغرقه الصعود إلى الجلجلة مؤلم إلى أعمق الحدود. فالصليب ثقيل (٧٥ كلغ في الفيلم و١٥٠ كلغ في الحقيقة) يحمله إنسان محطّم. والجنود كثيرون وجبّارون وقساة، في مقابل إنسان وحيد أثخنته الجراح، وهدّه الوجع والتعب والألم النفسي القاتل. ونصل إلى مكان تنفيذ الحكم بالقتل صلبًا، فيهتم المخرج بإبراز كل التفاصيل ... طيلة هذه الألم، لا نجد قرب يسوع سوى مريم أمه، ومريم المجدلية.

كل ذلك يجعل من المشاهد حاضرًا على ساحة الأحداث مشاركًا عن قرب بكل ما يجري، وكأنه يتحمّل مع المتألم عمق الوجع الجسدي، ويشهد بنفسه قساوة الألم النفسي.

ويبقى السؤال، لماذا؟ لماذا التشديد على كل هذا الألم؟ هل يعرّفنا هذا على يسوع ابن الله بشكل أفضل؟ ومن هو المسؤول عن هذه الجريمة بكل تفاصيلها الرهيبة؟

لا يبدو أن المخرج أراد من وراء هذا الفيلم أن يعرّف المشاهد أكثر على يسوع، وعلى الحياة في تلك الأيام. بل الأكيد أن من لا يعرف يسوع وإطار حياته الأرضية، ومن لا يعرف عمق رسالته الإلهية، لن

---

[٣] كانت الحكم في فلسطين تلك الأيام ينقسم إلى ثلاثة أقسام: كان الجنوب وفيها ا لعاصمة أورشليم يخضع لحكم والٍ روماني هو بيلاطس البنطي؛ وكانت منطقة الشمال، ومنها الجليل حيث عاش يسوع وبشّر وعلّم، تخضع لهيرودس انتيبا وهو ابن هيرودس الكبير الذي ولد يسوع على أيامه؛ وكانت منطقة شرق بحيرة طبريا، ومنها المدن العشر حيث قام يسوع بأكثر من أعجوبة، تخضع لفيليبس وهو شقيق هيرودس أنتيبا زوج هيروديا التي تزوّجها هيرودس ودانه يوحنا المعمدان على ذلك. كان بيلاطس البنطي على علاقة سيّئة مع هيرودس، فاغتنم مناسبة محاكمة يسوع ليصلح الأوضاع بينهما، فأرسل يسوع إليه كبرهان على احترامه لسلطته على الجليل على اعتبار أن يسوع جليلي يخضع لحكم هيرودس المباشر. لكن هيرودس أعاد الكرة إلى ملعب الروماني كي لا يخلق فتنة في الجليل حيث كان ليسوع أتباع كثيرون، فتصالحا على حساب موت البريء.

يفهم من الفيلم الشيء الكثير. فيسوع، بطل الفيلم إنسان قَبِل أن يعاني أقسى العذابات، بهدف إفهام البشر بأنه أعطى كلمة الله المكان الأول، في كل أوقات حياته وحتى النهاية. لقد أحبّ الجميع وغفر حتى لمعذّبيه وقاتليه. خلّص يسوع الإنسان بإظهاره إن الموت ليس النهاية، وبأننا نستطيع الاتحاد بالله إن نحن تبعنا طريق المحبة.

ولكن نعود لنسأل لماذا التشديد في الفيلم على كل هذا العنف؟

لا يمكننا بالطبع أن نعرف رأي المخرج وهدفه العميق من وراء ذلك.، لكن أمام ما نشاهده، يمكننا التأكيد أولاً بأن العنف مؤلم إلى أقصى الدرجات، وبأن من يلتذّون بالعنف الذي يمارسونه، مقرفون إلى أقصى الدرجات؛ ويمكننا الجزم ثانيًا، بأن المخرج أظهر بشكل واضح أن يسوع تألم حقًا، وبأنه قاسى ما يقاسيه كل إنسان يُجلد، ويُهان، ويحمل ثقلاً كبيرًا، ويُجرح رأسه بالأشواك، ويُهزأ من ألمه، ويُصلب... وكل ذلك دون أي ذنب اقترفه.

نعم تألم يسوع ككل إنسان، توجّع كما يتوجّع البشر، قاسى كما نقاسي، ومات كما نموت. عاش ضعف إنسانيتنا بالكامل ... ولم يسقط أمام هول الوجع. وكل من لا يُصدّق اليوم ان يسوع تألم كما كل إنسان، يشبه من لم يصدّقوا في تلك الأيام بأنه ابن الله. وقد نجح غبسون في التشديد على هذه الناحية.

ككل الجرائم، كان ما حدث ليسوع عملاً بربريًا، وجريمة دموية نكراء، وكل جريمة هي إعادة لجريمة تعذيب يسوع وقتله. تجسّد ابن الله ليشاركنا إنسانيتنا ويعيدنا إلى طريق الله، فرذلناه وعذّبناه وقتلناه. هذه هي الحقيقة ولا يمكننا أن ننكرها. هذه هي الحقيقة التي تصفعنا في فيلم غبسون، لأنها تضعنا أمام حقيقة عنف الإنسان تجاه أخيه الإنسان. الجريمة تحدث عادة في الخفاء، ولا تظهر بشاعتها أمام الملأ، لكنها هنا تزعجنا لأنها تظهر بربرية الإنسان القادر أن يعذّب، دون هوادة ودون سبب، إنسانًا لا يعرفه ولم يتسبب له بأذى. لا! لا أحد يستأهل أن يتحمّل قسوة كالتي نراها في هذا الفيلم!وإن كان صحيحًا أن الأزمنة تغيّرت، وبأن هذه الحادثة مرّت وانتهت فصولها منذ ألفي سنة، فإن الصحيح أيضًا أن منطق البشر لم يتغيّر. فلا بأس إن انزعجنا وقرفنا مما نراه في الفيلم، علّنا نتجنّد جميعًا للعمل ضد العنف، مع الذين يجهدون لمحو الألم الذي يتسبب به إنسان لإنسان.

لقد ارتكبت البشرية جريمة فظيعة فقتلت ابن الله. بعضهم لعب دورًا واضحًا في هذه الجريمة، لكن لا أحد بريء من دم هذا القدوس. والفيلم يُظهر جليًا مساهمة كل شخص في تحديد مصير يسوع. فيهوذا التلميذ خانه. والمجمع اليهودي، المسؤول عن حياة المؤمنين الروحية، اتهمه زورًا. وتلاميذه الأقربين تركوه وهربوا. وبطرس، الصخرة التي سيبني يسوع عليها كنيسته، نفى أنه يعرفه. وهيرودس الملك تلاعب به. وبيلاطس الحاكم، المسؤول عن ترسيخ العدالة والحق، سمح بأن يحكم عليه، دون حق، بالجلد والصلب.

والجمع الحاضر بكل أفراده قال "اصلبه" إرضاء لمسؤوليه، أو خوفًا منهم. والجنود جلدوه واستمتعوا بألمه، فكان لهم الواجب مناسبة لإشباع غرائزهم الدموية، ولإطلاق العنان لشهوة الدم والاستهزاء. والشيطان إبليس، حاضر وراء كل أعمال القتل هذه. فمن هو البريء في هذه الجريمة؟

ربما أجابني أحد أفراد الجمع : لم أفعل سوى أني قلت بصوت خافت وكما فعل الجميع "اصلبه". فما هي فعالية كلمتي تجاه السلطات؟ ومن أنا عندما يتكلم الكبار؟

صحيح، ولكن آلاف الأصوات الخافتة تؤلف صرخة مدوّية تخيف المسؤول الجبان، وتتسبب بقتل البريء. نعم، ربما كنا من هؤلاء الذين لم يفعلوا سوى القليل من الشر، أو من الذين خافوا من المواجهة فانجرفوا مع الظالم والجهل... فلنعرف اليوم ان انجرافنا الدائم مع الخطأ، ولو بشكل بسيط، قادر على صلب ابن الله. لنعترف بأن خطايانا هي جزء مما حمله الرب يسوع، وبأن تصرّفاتنا اليومية، البعيدة عن الأخلاقية المسيحية، ما هي إلا همس يتحوّل صرخة عالية "اصلبه".

جميعنا مسؤولون عن آلام المسيح أمس، وعن آلام كل ابن لله حتى اليوم. لقد عرف ميل غبسون أن يظهر أمامنا كم تستطيع البشرية أن تكون شريرة، وأن يبيّن في الوقت عينه مقدار محبة الله ومغفرته لها. من خلال نظره بعينه الوحيدة التي بقيت سليمة، يعلن يسوع لمعذّبيه المحيطين به مقدار حضوره لهم، وغفرانه لجلهلهم، وتحمّله خطيئتهم، دون أن يخطأ على مثالهم. هذا هو قبول يسوع لألمه. لم يبحث عن الألم، ولم يسعَ وراء الصليب، لكنه قبِل ألمه برضى، وحمل صليبه بروح فداء تجاه صالبيه.

عندما نرى جسد يسوع الممزّق في هذا الفيلم، نفهم ما معنى الخطيئة. لقد أظهر في جسده أمام عيوننا هول الخطيئة. نعم أمام عيوننا تتجسّد في جسد يسوع الممزق مفاعيل كل خطايا البشر، هذا ما قصده القديس بولس بقوله "الذي ما عرف الخطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا لنصير به أبراراً عند الله" (٢ كور ٥: ٢١). أخذ خطايانا في جسده، تألم منها وغسلنا بدمه طالبًا لنا الغفران. فلنؤمن بأن الرب طلب لنا الغفران لجهلنا، وبأن دمه ينزل "علينا وعلى أولادنا" بركة وغسلاً من كل دنس الخطيئة. لنضع ذواتنا تحت رحمته، ولنطلب الغفران والتطهير من إثمنا. ولنطلب من الرب المغفرة، ولنشكره على محبته وغفرانه لنا، ولنستعدّ لتغيير مفهومنا لحياتنا المسيحية، فنكون مع مريم، على خطى المسيح المتألم والقائم من الموت، ولو في غمرة العنف الذي نحياه يوميًا.

لا أحد بريء من دم هذا القدوس. مريم هي البريئة الوحيدة، والحاضرة الدائمة مع ابنها في الأفراح وفي أعمق الأحزان. إنها أمة الرب التي قبلت إرادته حتى النهاية. تركت ابنها يسير طريق الفداء حتى التمام، واشتركت معه بالألم فشاركته الفداء. إنها أم كل المخلّصين بدم ابنها الفادي.

في كل وجعه وألمه، لم يدخل الحقد قلب يسوع، ولم تتغيّر قناعاته. ينظر إلى قدمي جلاّديه فيعيدنا إلى غسل أقدام تلاميذه أثناء العشاء الأخير؛ ويُصلب فيعيدنا إلى إعطائه جسده ودمه، فيفسّر لنا بذلك معنى الجلجلة: إنها ذبيحة وشكران.

لم تكن كلمات يسوع وتصرفاته مظاهر خادعة، بل التزم بها حتى النهاية. فافتح أيها المسيحي قلبك وفكرك واعرف من أنت!